كيف تغيرت جنوب أفريقيا بعد 30 سنة من الفصل العنصري؟

كتبه ذي إيكونوميست | 4 مايو ,2024

ترجمة وتحرير: نون بوست

أدلى نيلسون مانديلا بصوته لأول مرة في حياته يوم 27 نيسان/ أبريل 1994 في إينانداا، وهي منطقة فقيرة تقع على التلال المطلة على مدينة ديربان. وقد أظهر اختياره لهذا الموقع أن الرئيس المنتظر لجنوب أفريقيا لم يفقد أيًا من رمزيّته بعد 27 سنة قضاها كأشهر سجين سياسي في العالم. وبعد الاقتراع، توجه مانديلا إلى قبر جون دوبي القريب، أول رئيس لحزبه المؤتمر الوطني الأفريقي وقال بصوته الرنان: "لقد جئت لأبلغك، سيدي الرئيس، أن جنوب أفريقيا أصبحت حرة الآن".

بعد مرور 30 سنة، أصبحت جنوب أفريقيا دولة حرةً بلا أدنى شك. لقد انتهى الشر الخبيث للفصل العنصري. ويضمن الدستور الليبرالي قدرة مواطني جنوب أفريقيا على قول ما يريدون، والانتقال إلى حيث يريدون والزواج بمن يحبون. لقد نجحت دولة الرفاهية الأساسية في انتشال الملايين من براثن الفقر. وأصبح سكان جنوب إفريقيا يتواصلون بشكل أكبر مع الأشخاص من الأعراق الأخرى. ويقول أكثر من ثلاثة أرباعهم إن ما يوحّدهم أكثر مما يفرّقهم، وذلك وفقًا لاستطلاع بارومتر المصالحة في جنوب أفريقيا، وهو استطلاع يُجرى كل سنتين. وستكون الانتخابات المُزمع عقدها في 29 أيار/ مايو

لكن هذا التقدم لم يكن مضمونا. ويخشى البعض أن تنزلق جنوب أفريقيا إلى حرب أهلية أو حكم استبدادي، خاصة أن زيمبابوي المجاورة أصبحت دكتاتورية تعاني من التضخم المفرط بعد حوالي 27 سنة من نهاية حكم البيض.

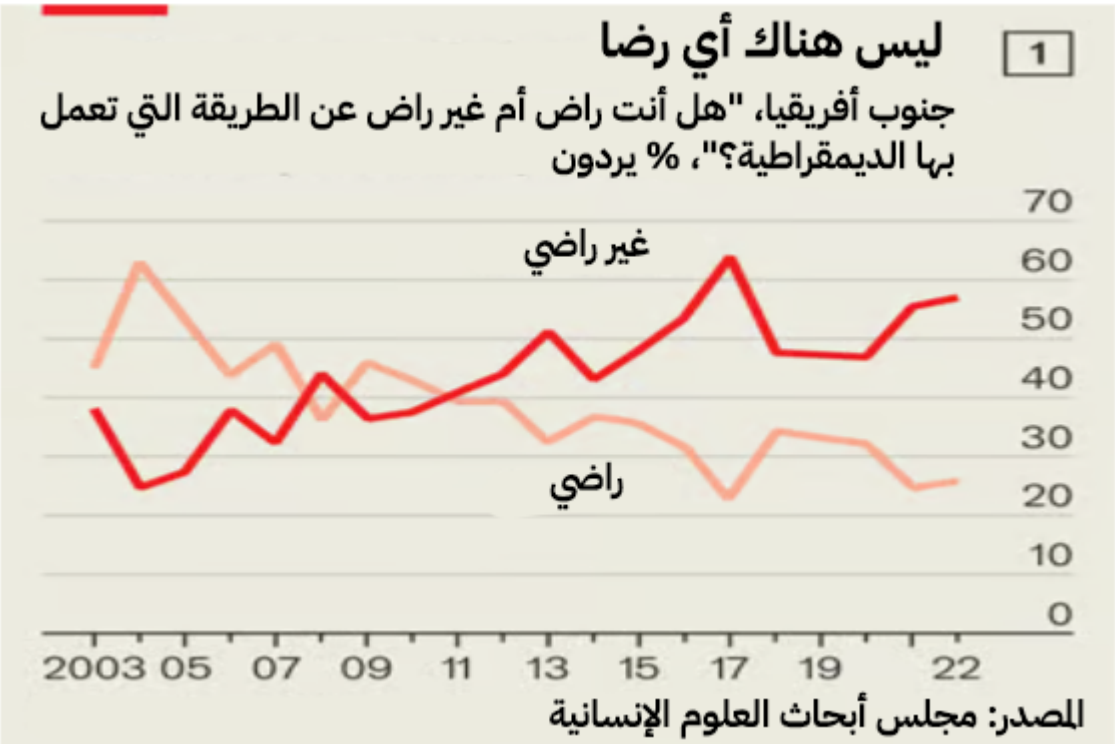

بينما يستعد مواطنو جنوب إفريقيا للإدلاء بأصواتهم، فإنهم يفعلون ذلك بمزاج يائس إذ قال 29 بالمئة فقط إن حياتهم سوف تتحسن خلال السنوات الخمس المقبلة.

قبل عقدين من الزمن كان عدد سكان جنوب إفريقيا الراضين عن الديمقراطية أكثر من ضعف عدد غير الراضين عنها، أما اليوم فقد انقلبت الموازين (انظر الرسم البياني 1). قال ما لا يقل عن 79 بالمئة من المشاركين في الاستطلاع إن القادة السياسيين لا يمكن الوثوق بهم، مقارنةً بـ 21 بالمئة قبل عقد من الزمان فقط. ومنذ سنة 2010 تقريبًا، قال عدد أقل من مواطني جنوب إفريقيا إنهم يعتقدون أن العلاقات العرقية أفضل الآن مما كانت عليه في سنة 1994 (انظر الرسم البياني 2).

هذه المواقف هي نتاج الظروف المادية التي يعيشها سكان جنوب أفريقيا. كانت الديمقراطية عبارة عن لعبة من نصفين: فقد شهدت السنوات الخمس عشرة الأولى تحسينات واسعة النطاق في حياة الناس، ولكن السنوات الخمس عشرة الأخيرة كانت قاتمة إذ ارتفع معدل البطالة من 20 بالمئة سنة 2008 إلى 32 بالمئة اليوم، وأصبح الناتج المحلي الإجمالي للفرد أقل مما كان عليه في سنة 2008 بعد تعديل التضخم، وارتفع معدل جرائم القتل إلى أعلى مستوياته منذ 20 سنة، وشهدت السنة الماضية انقطاعات قياسية في التيار الكهربائي.

أشار الباحثون الذين أجروا استطلاع المواقف الاجتماعية في جنوب إفريقيا (ساساس) إلى أن استطلاع السنة الماضية وجد أعلى مستويات التناقض على الإطلاق حول ما إذا كانت الديمقراطية أفضل من الاستبداد. وقال نحو 72 بالمئة من المشاركين إنهم سيتخلون عن التصويت إذا تمكنت حكومة غير منتخبة من ضمان حصولهم على الوظائف والأمن والإسكان، وذلك حسب ما مركز أفروباروميتر لاستطلاعات الرأي في أفريقيا.

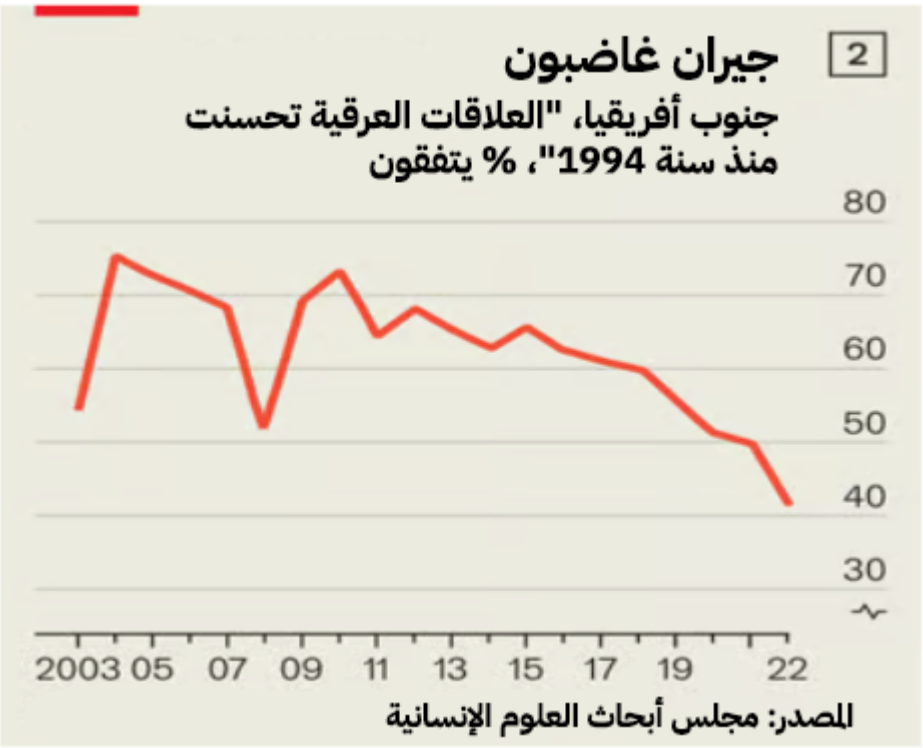

تفسر كل هذه الإحباطات الأسباب التي تجعل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي يناضل من أجل الاحتفاظ بأغلبيته البرلمانية للمرة الأولى منذ سنة 1994. ويركز كثيرون في جنوب أفريقيا بشكل ضيق على الأحزاب التي قد تنضم إلى الائتلاف (الذي يكاد يكون من المؤكد أن يقوده حزب المؤتمر الوطني الأفريقي) لتشكيل الحكومة المقبلة. ولكن الذكرى السنوية الثلاثين تثير سؤالاً أكثر عمقا، وهو إلى متى قد تتمكن رؤية مانديلا لجنوب أفريقيا من الصمود في حين لم يستمتع العديد من الناس بفوائد الديمقراطية؟

للإجابة على ذلك، قامت مجلة "الإيكونوميست" برحلة تحت عنوان مانديلا، شملت الأماكن ذات الأهمية في حياته. وكانت المحطة الأولى في كونو، حيث أمضى مانديلا طفولته. وتقدم هذه القرية الفقيرة الممتدة عبر التلال والوديان الخضراء درسا في كيفية رؤية الأجيال المختلفة للديمقراطية. يجتمع السكان المسنون في منزل متداعٍ لتبادل وجهات نظرهم حول الحياة منذ نظام الفصل العنصري. وتتذكر فلورنس ماتيكينكا أنها كانت تختبئ من الشرطة كلما سافرت دون تصريح يتحكم في حركة السود. وقال نكوالي زوزوا: "لا توجد الآن حدود داخل جنوب أفريقيا". كانت كونو جزءًا من ترانسكاي، وهي واحدة من عشرة "أوطان" عرقية تهدف إلى الحد من عدد السود الذين يعيشون في جنوب إفريقيا التي يحكمها البيض. وأضافت: "يمكننا أن نرفع أصواتنا ونستطيع الاحتجاج دون خوف".

منح الشيخوخة

يشيد أولئك الذين هم في مرحلة الخرف بتوسيع مزايا الرعاية الاجتماعية المعروفة باسم المنح. (يحصل المتقاعدون المؤهلون على حوالي 2200 راند أوما يعادل 118 دولارًا شهريًا). وقد ارتفع الإنفاق على المنح من حوالي اثنين بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي في سنة 1994 إلى حوالي أربعة بالمئة. وبهذا المقياس، تعد شبكة الأمان الاجتماعي في جنوب أفريقيا واحدة من أكثر الشبكات سخاءً على مستوى العالم. واليوم يحصل 47 بالمئة من السكان على منحة، مقارنة بنحو ستة بالمئة في سنة 1994.

ولكن الجيل الذي "ولد حرا" بعد سنة 1994 ليس لديه ما يستحق الاحتفال به ـ مع إطار مرجعي مختلف. ووفقاً لآخر تعداد سكاني، انخفضت نسبة الأسر التي لا تستطيع الوصول إلى المياه المنقولة بالأنابيب من 20 بالمئة في سنة 1996 إلى تسعة بالمئة في سنة 2022. وارتفعت نسبة أولئك الذين يعيشون في مساكن رسمية ويحصلون على الكهرباء على التوالي من 65 بالمئة إلى 89 بالمئة ومن 58 بالمئة إلى 95 بالمئة. لكن التقدم لم يكن خطيا: فمعظم المكاسب جاءت في التسعينات والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وفي العديد من البلديات المحلية تتدهور البنية التحتية نتيجة الفساد والجريمة وسوء الإدارة. ولم يحصل سكان كونو على مياه جارية منذ أربع سنوات.

اشتدت البطالة مع بلوغ الأطفال الأحرار سن الرشد. ومنذ سنة 2008، ارتفع عدد العاملين بمقدار 2.3 مليون، في حين ارتفع عدد مواطني جنوب أفريقيا في سن العمل بمقدار 9.5 مليون. ويبلغ معدل البطالة لمن تتراوح أعمارهم بين 15 و34 سنة 44 بالمئة.

نشر ديفيد إيفريت من جامعة ويتواترسراند مؤخرا نسخة محدثة من مؤشر "تهميش الشباب" الذي أصدره لأول مرة في سنة 1992. ويجمع المؤشر بين بيانات موضوعية عن مقاييس مثل البطالة واستطلاعات رأي ذاتية حول الرفاهة. ومن المؤسف أنه وجد أن "عددًا أقل من الشباب يبلون بلاءً حسنًا مقارنة بنظرائهم منذ 30 سنة مضت".

تعتبر المنح علامة على الفشل وكذلك النجاح. ويعتقد البنك الدولي أنه مقابل كل متلق، يعتمد موطان جنوب أفريقي آخر أيضًا على تلك المنحة. وفي كونو، تعيل نونتسيكيليلو جوزانا أربعة أحفاد من راتبها. وتنهدت قائلة: "إنهم جميعًا عاطلون على العمل". ويقوم بعض أصحاب المعاشات بإخفاء أموالهم خشية سرقتها من أجل المخدرات.

سوء التعليم لا يساعد ذلك أن أكثر من 75 بالمئة من الأطفال في سن العاشرة لا يستطيعون القراءة "من أجل المعنى"، وذلك وفق اختبار دولي معياري. وفي نصف المدارس الابتدائية تقريباً، لا يستطيع تلميذ واحد القيام بذلك. وتعد مدرسة كونو الابتدائية المكان الذي أطلق فيه المعلم اسم "نيلسون" على تلميذه روليهلاهلا مانديلا. مع ذلك، فإن "مكتبة مانديلا" في المدرسة مغلقة بسبب انهيار المبنى. ويسَع متوسط حجم الفصل أكثر من 60 طالبا. وأشار المعلمون إلى أن سيريل رامافوسا، رئيس جنوب أفريقيا، افتتح السنة الماضية في شارعهم متحف مانديلا بتمويل من الدولة، بينما لا تتوفر في

مدرستهم مياه جارية ويعاني الأطفال من الجوع لأن حكومة المقاطعة توقفت عن دفع ثمن الوجبات. وقال أحد السكان: "يعتقد الناس أن هذه مدينة مانديلا، لذا فإننا نحظى بمعاملة خاصة، لكن الأمر ليس كذلك".

استنادا إلى مدى انخفاض نسبة المشاركة في صفوف الأشخاص الذين تقل أعمارهم عن 30 سنة في الانتخابات الأخيرة، فربما يصوت واحد فقط من كل أربعة من "الأحرار المولودين" في شهر أيار/ مايو. ومن المرجح أن يفكر الأشخاص الذين تقل أعمارهم عن 35 سنة في التخلص من الحكومات غير المنتخبة لصالح مستبدين افتراضيين يمكنهم توفير الوظائف. وقال مبونجيني مكوانازي: "أنت لا تصوت إلا إذا كنت تؤمن بشيء ما". وأضاف فونيكا شوبينج: "إن مسألة الديمقراطية هذه لا تعمل. قد يبدو الأمر وكأن النظام مصمم لقمع الرجل الأسود. وماذا عن الحقوق الواردة في الدستور؟ حقوق؟ لدي الحق في الاحتماء بالدستور، لكنني عالق في منزل جدتي".

كانت المحطة التالية جوهانسبرغ، العاصمة التجارية لجنوب أفريقيا، حيث فر مانديلا بعد أن حاول ولي أمره الريفي إجباره على زواج مدبر. وفي سويتو، البلدة التي عاش فيها مانديلا، من الواضح أن الطبقة المتوسطة السوداء توسعت منذ سنة 1994. وقد شهدت السنة الماضية افتتاح أول "عقار لأسلوب الحياة" في سويتو، وهو نوع من التطوير المرتبط بالبيض الأثرياء. وتوجد فيه عيادات خاصة ومدارس خاصة تخدم السوق المحلي. واستخدمت دراسة صارمة للفصل الدراسي، نُشرت في سنة 2019، أجراها روكو زيزاميا من جامعة أكسفورد وزملاؤه، بيانات الدخل القومي لتقسيم مواطني جنوب إفريقيا إلى خمس فئات بناءً على ما إذا كانوا يعانون من فقر مزمن أو فقر عابر (أي ينتقلون إلى الفقر ويخرجون منه) أو الضعفاء (فوق خط الفقر مباشرة)، أو الطبقة المتوسطة أو النخبة. ويشكل السود، الذين يمثلون 81 بالمئة من السكان، نسبة غير متناسبة من الفئات الثلاث الأولى. مع ذلك، يشكل السود اليوم حوالي ثلثي الطبقة الوسطى وأكثر من خمس النخبة. ويشكل البيض، الذين يشكلون نحو سبعة بالمئة من السكان، أكثر من خمس الطبقة المتوسطة ونحو ثلثي النخبة.

أسياد المجتمع أم اشتراكيون؟

أدى نمو البرجوازية السوداء إلى اندماج جزئي عبر حواجز الفصل العنصري. وارتفعت نسبة السود الذين يقولون إنهم يتواصلون مع أعراق أخرى خمسة أضعاف من سنة 2003 (ستة بالمئة) إلى سنة 2023 (30 بالمئة)، وذلك وفقًا لاستطلاع ساربس. وارتفعت نسبة أولئك الذين يقولون إنهم يتفاعلون بانتظام مع أشخاص من أعراق أخرى من 15 بالمئة إلى 37 بالمئة. وتشير استطلاعات الرأي الأخرى إلى أن معظم مواطني جنوب إفريقيا لا يبلّغون عن تعرّضهم للعنصرية في الحياة اليومية.

قالت ساندري إيسيمانج، المستشارة المالية التي تعمل في شركة ميني الخاصة بها داخل وخارج حفر سويتو، إنه كان من الصعب أن تكون امرأة سوداء في شركة يهيمن عليها البيض في التسعينات. ولكن بالنسبة لابنتها، التي تخرجت حديثا، فإن "الأمور أسهل بكثير". وقالت زياندا نتومبيلا إن

والديها سارعا لإرسالها إلى مدرسة معظمها من البيض في التسعينات، لكنهما كانا مترددين في استقبال أصدقائها. ("كانوا يقولون: من هي فيليسيتي بحق الجحيم؟ أردنا منك أن تتعلمي مع الأطفال البيض، لا أن تكوني صديقة لهم".) وبالنسبة لبناتها، يعد تنوع حفلات النوم هو القاعدة.

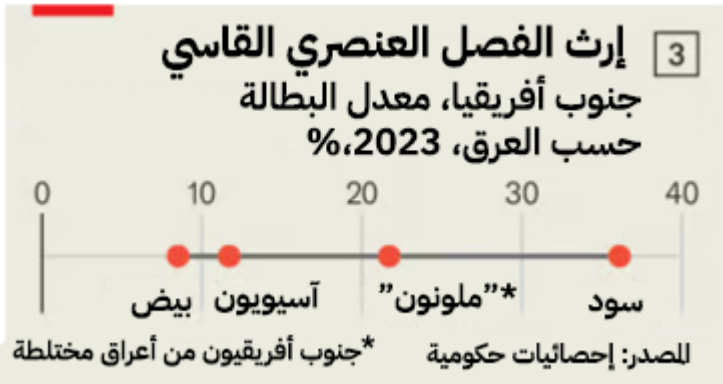

لكن حفلات مبردات المياه والبيجامات لا يمكنها أن تفعل الكثير. ويظل معظم السود فقراء. وما حدث من تضييق في نسبة متوسط دخل البيض إلى السود منذ التسعينات كان إلى حد كبير بسبب المكاسب التي حققها أصحاب الدخل السود في أعلى 10 بالمئة من التوزيع، وذلك وفقًا لورقة بحثية شارك في تأليفها أموري غتين من كلية باريس للاقتصاد. في صفوف السود، يُشار إلى "الفقر وعدم المساواة" باعتبارهما العائق الرئيسي أمام المصالحة. وقال فوسي ملامبو، وهو سباك، إن "الأغنياء بيننا يزدادون ثراء بينما يظل الفقراء فقراء". وقال خنساني نكوندي، الذي يدير مؤسسة خيرية: "نحن أحرار سياسيا ولكننا لسنا أحرارا اقتصاديا". وقال جولين كوتزي، كبير الباحثين في مركز ساساس، إن مواقف مواطني جنوب إفريقيا تجاه الديمقراطية والعلاقات العرقية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بآرائهم حول رفاهيتهم وأداء حكومتهم. ويساعد ذلك في تفسير المفارقة المتمثلة في المزيد من التكامل بين أولئك الذين لديهم القليل من المال، في حين أن الآراء حول ما إذا كانت العلاقات العرقية قد تحسنت منذ سنة 1994 قد ساءت بشكل عام.

صعوبات مضاعفة

وما يزيد الطين بلة أن السود من الطبقة المتوسطة في جنوب أفريقيا يعتقدون في كثير من الأحيان أن البيض يكافحون من أجل التعاطف مع الصعوبات التي يواجهونها. وقال أندرو مجاجا، وهو سويتاني يعمل لحسابه الخاص، إن "هناك فرقا بين ثروة الجيل الأول وثروة الجيل العشرين". وأشارت السيدة إيسيمانج إلى دور "الضريبة السوداء"، وهي عادة تقاسم الأجر مع الأقارب، قائلة "نحن دائمًا نلعب لعبة اللحاق بالركب كأشخاص سود".

يقول البيض بشكل خاص حاليا إن العنصرية – وليس الفقر وانعدام المساواة – هي أكبر عائق أمام المصالحة. وهم لا يقصدون بذلك أنفسهم. وقالت السيدة كوتز إن وجهات نظرهم تعكس رأيًا مشتركًا مفاده أن السياسات المتعلقة بالعمل الإيجابي ("العدالة في التوظيف") وإعادة توزيع الثروة ("التمكين الاقتصادي للسود") غير عادلة في تفضيل المجموعات من غير البيض. وقالت إن "المفارقة

الكبرى هي أن البيض والسود في جنوب أفريقيا يجرون نفس المحادثة من وجهات نظر مختلفة – وتدور هذه محادثة حول الاستبعاد الاقتصادي". فلو كان هناك المزيد من الوظائف المتاحة، لكان هناك توتر أقل عبر الانقسامات الطبقية والعرقية. ولكن في دولة منخفضة النمو والثقة، من الممكن أن تصبح السياسة محصلتها صفر بسرعة. وهذا يجعل المصالحة صعبة.

ولدت حرا

تخلق السياسات الصفرية أيضًا فرصًا للشعبويين لاستخدام الفقر والهوية كسلاح. وبالعودة إلى إناندا، في كوازولو ناتال، وهي مقاطعة تهيمن عليها قبيلة الزولو، أكبر مجموعة عرقية في البلاد، قام جاكوب زوما، رئيس جنوب أفريقيا السابق – وهو من الزولو إلى حد كبير – بتأسيس حزب رمح الأمة في أيلول/ سبتمبر الماضي. ومن المحتمل أن يفوز الحزب الجديد بأكبر عدد من الأصوات في كوازولو ناتال ويحتل المركز الرابع على المستوى الوطني، وذلك وفقًا لاستطلاعات الرأي الأخيرة.

يمزج حزب رمح الأمة بين الشعبوية المناهضة للبيض وقبلية الزولو. ومثل حزب المقاتلين من أجل الحرية الاقتصادية، وهو ثالث أكبر حزب في جنوب أفريقيا، فهو يلقي باللوم على البيض والمتعاونين معهم من السود المفترضين، مثل رامافوزا، في أزمات جنوب أفريقيا. وقال حزب رمح الأمة إن جنوب أفريقيا "تهيمن عليها ثقافيا وفنيا وروحيا واقتصاديا مجموعة أقلية ذات ثقافة غريبة". ويريد كلا الطرفين مصادرة الأراضي دون تعويض. وحتى أن حزب روح الأمة يشير إلى أنه يريد التخلص من الدستور الليبرالي. كما أن زوما ماهر في إثارة الشوفينية لدى الزولو. وخلال الحملة الانتخابية لحزب روح الأمة اقترح أنه إذا كانت البلاد محكومة بـ "القانون الأفريقي"، فسيتم حظر زواج المثليين. وفي نداء غير خفي، تساءل عن سبب وجود متحدثين باللغة التسوانية (لغة رسمية أخرى) في كوازولو ناتال.

من جانبه، تساءل ناثي خوزوايو، الذي يستيقظ في الرابعة صباحًا ليقوم بتنظيف المراحيض في

مطعمه بسبب تعطل نظام الصرف الصحي، قائلا "كيف صوت مانديلا هنا وهم لا يهتمون بهذا الشيء؟". وخلص تحقيق بقيادة قاضي في سنة 2022 إلى أن زوما كان له دور أساسي في "الاستيلاء على الدولة" التي شهدت نهب الشركات المملوكة للقطاع العام. ولكن هذا ليس له أهمية كبيرة بالنسبة للسيد خوزوايو وغيره من أنصار حزب رمح الأمة.

من وجهة نظر حزب رمح الأمة، فإنه سوف يقوم بعمل أفضل لأنه حزب الزولو للزولو. وهو يقارن ذلك بالطريقة التي يعتني بها التحالف الديمقراطي (دا)، ثاني أكبر حزب في البلاد، بقبيلته الخاصة، والتي في رأيه تمثل البيض في جنوب أفريقيا. وقال: "فلتكن قبلية. إنها لعبة مختلفة الآن". لكن حزب رمح الأمة يلعب بالنار. وقال عدد كبير من سكان جنوب إفريقيا إن أقوى ارتباط جماعي لديهم هو مع أولئك الذين يتحدثون نفس اللغة. ويجب أن يكون هذا تحذيرًا من أن الحراس هاجموا الأجانب السود، غالبًا من الزيمبابويين، في البلدات بأعداد متزايدة في السنوات الخمس عشرة الماضية.

تتمتع الديمقراطية في جنوب أفريقيا ببعض المرونة المتأصلة في مواجهة الشعبوية القبيحة. ولقد ساعدت تسويات سنة 1994 على تطبيع الحكم الديمقراطي، والنقل السلمي للسلطة، وبناء الإجماع عبر الانقسامات العرقية والقبلية. إن الطريقة التي حاول بها نظام الفصل العنصري تقويض هوية جنوب أفريقيا السوداء وغير العنصرية المشتركة لم تُنسَ. ومعظم مواطني جنوب إفريقيا لديهم هويات مزدوجة، مثل جنوب إفريقيا وزولو، وخوسا، وفنداس، وأفريكانرز، وما إلى ذلك.

لا يزال هناك شيء من الوسطية في سياسة جنوب أفريقيا. تشير استطلاعات الرأي إلى أن عددا كبيرا من الناخبين في جنوب أفريقيا . فضلاً عن عدد كبير من ناخبي حزب المؤتمر الوطني الأفريقي . يريدون أن يكون الحزب الديمقراطي شريكاً في ائتلاف حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. وقال المحلل السياسي فرانس كرونجي إن هناك يأسًا من أجل قيادة أفضل، و"المستبد ذو الشخصية الكاريزمية سيحقق نتائج جيدة هنا، لكن الأمر نفسه ينطبق أيضًا على الديمقراطي الليبرالي المقنع والكاريزماتي". وهو يشبّه ديمقراطية جنوب أفريقيا بجهاز المناعة الذي ينبغي له أن يصد العناصر الضارة.

الخطر إذا مات الأمل

يكمن الخطر في ذلك إذا أصبح الهيكل السياسي ضعيفًا جدًا لدرجة فقدان صلاحياته الدفاعية. وكلما زادت الهوة بين التوقعات التي أثيرت بحلول سنة 1994 وواقع سنة 2024، زادت فرصة أولئك الذين لا يؤمنون بمجتمع ليبرالي غير عنصري لسد الفجوة. ومن الممكن أن ينتشر اليأس بشأن الديمقراطية إلى شيء أكثر بشاعة.

بالقرب من المتحف في إيناندا، يعيش سانديل مافومولو، البالغ من العمر 32 سنة، الذي ولد في إيناندا ولكنه يدرس في ألمانيا. لقد عاد من أجل الانتخابات. وبالقرب من المكان الذي صوت فيه

مانديلا، نظر إلى المحيط، مقارنا بلدته مع الفيلات الواقعة على الشاطئ. وعلى الرغم من أنه يقدّر التماسك الاجتماعي الأكبر، إلا أن "النضال الحقيقي لا يتمثل في أن يكون السود أصدقاء مع البيض، بل إن النضال الحقيقي هو أن يتمتع السود بحياة أفضل" على حد تعبير مافومولو.

المصدر: الإيكونوميست

رابط المقال : https://www.noonpost.com/211927/